الذرة تحت المجهر

بقلم أودجان ميستر

الظواهر المختلفة التي يعج بها عالمنا هذا والتي تتمثل فيها دينامية الحياة في اشكال متعددة وطاقات مختلفة تستمر في حالات تطور لا ينتهي ، تفرضه طبيعة تكوين المادة من جهة وميتافزيائية الحياة من جهة ثانية . ويشمل هذا التطور كل مادة وكل كائن حي في كوكبنا الصغير هذا. غير ان الفرق بين تمثل التطور في المادة وبين تمثله في الكائن الحي فرق كبير كبر التباين الواضح الكائن بين الظاهرتين . فالمادة تتطور تطورا لا « قيمية » فيه ان في الاعتبار النسبي وان في الاعتبار المطلق اذ ان قوام التطور في المادة هو هذا التغير الحاصل في التركيب الذري الجزيئي الكتروناتها او بروتوناتها ، واما في جهرفردها (١) Atome

واما في ذراتها molecule مجموع التغيرات الفيزيائية والكيميائية المعروفة في عالم الاتحاث العلمية . فتحول الاجسام العضوية التي فقدت خلاياها ، استمرارها الحيوي الى اجسام كربونية مثلا لا يفقد المادة الجديدة التي انتهى اليها هذا التحول « قيمتها » من حيث الطاقة الكامنة فيها اطلاقا ، لان هذه الطاقة ، في حدودها الكلية ، تبقى صالحة للزيادة كما تبقى صالحة ايضا للنقصان . فقيمتها بالنسبة للنظام التغيري غير الرتيب للارض لا تتغير في جميع مجالات تفاعل الطاقات . وهذا ما يدعونا لاقصاء كلمة « التطور » عندما يكون البحث مقصورا على المادة وحدها والاستعاضة عنها بلفظة التغير .

اما بالنسبة للكائن الحي فان الامر يختلف كل الاختلاف لان الكائن الحي يحمل « قيميته » في ذاته ، اي في المجموعات المنوعة التي تتمثل فيها استمرارية الحياة . والكائن الحي لا بد له من ان يتناغم مع التغير المادي الذي يحدث في بيئته اما بصورة رتيبة متعاقبة واما بصورة دفعات فجائية تكون غالبا على نطاق واسع وبتحول جذري.

وعدم تناغم الكائن الحي مع التغير الذي يصيب بيئته يعرض واحدة او اكثر من واحدة من مجموعاته (الانواع) الى الفناء والذوبان في مجالات الطاقة المادية . ولما كانت البيئات الفيزيائية في حالة تغير دائمي نسبيا كان لا بد للكائن الحي من تغير دائم نسبي ايضا . فقد يرحل سرب من الغزلان من بادية تكيف السرب حسب طبيعتها نتيجة تعاقب اجيال عديدة الى بادية اخرى لاسباب طبيعية معينة. وقد تكون هذه البادية الثانية مختلفة في لون ترتبها ، مثلا عن البادية الاولى التي تاثر لون السرب بلون تربتها . فاذا بقي لون السرب متغاير مع لون البادية سهل ذلك للحيوانات المفترسة المختلفة التي تعيش ايضا في البادية ذاتها اكتشاف غزلان السرب عن بعد وسهل بالتالي قنصها وافتراسها غزالا بعد غزال . هنا تنبعث الحاجة الى التطور فتنشط العوامل الطبيعية في عملها وتكون النتيجة ان يشذ غزال في لونه فيكون به أقرب الى لون تربة البادية . وينتقل اللون الجديد الى الاجيال القادمة بالانتقاء وبصورة تدريجية بينما تستمر غزلان السرب التي لا تستجيب لهذا التطور في الانقراض تدريجيا ايضا الى ان يعم اللون الجديد السرب القديم

غير ان الامر لا يقف عند هذا الحد . فالبيئة الفيزيكية في تغير مستمر ان بسبب انتقال فصائل من الحيوان من بيئة الى اخرى كما كان في المثل الماضي وان بسبب تغيرات مختلفة تصيب البيئة ذاتها . لذلك تبقى الحاجة الى التطور حاجة مستمرة ويبقى التطور ذاته تطورا مستمرا ايضا .

اما عن الانسان ، وهو ارقى انواع الكائنات الحية ، فان الامر يبلغ الذروة في الاختلاف لان الانسان ، هذا الانسان الذي انتقل دماغه من مرحلة كونه ضابطا لحركات الاعصاب في استقبالها لانواع المؤثرات الخارجية وفي انفعالها بها ثم في تاريخه الطويل الذي يصعب تحديد مداه بادوار ومراحل معقدة متشابكة ميزت حياته بمعالم جديدة كثيرة

«١» الجوهر الفرد

اصبحت جزءا من وجوده واستمراره .

وعرف هذا الانسان بعض معاني ذاته وادرك بصورة عفوية حينا وتحليلية حينا اخر ارتباط التطور بحياته واهمية هذا الارتباط ، وانتبه في الوقت ذاته الى قدرة هذا العقل الجبار الذي اصبح يملكه فصار ـ كفرد ـ يرى هذ التطور بطيئا في تكيفه ، ثقيلا في صعوده ، منكمشا في انطلاقه .. حتى اذا استبطأ المرحلة القادمة في استمراره التكاملي ورأى في الوسط الذي يعيش فيه اوضاعا خاصة ادرك انها في جملة العوامل التي تريه المرحلة القادمة بعيدة، وجد نفسه في حاجة الى اصطناع موقف ما ، موقف يدنيه من المرحلة الجديدة ويخفف عنده من التوتر الذي تولد نتيجة لادراكه ووعيه للمرحلة هذه ، ونتيجة لشعوره بعراقيل معينة تقف في طريق وصوله اليها . ومن طبيعة هذا الموقف الدينامية المستمرة الفاعلة التي لا تهدأ طالما تبدو وراء كل مرحلة مرحلة اخرى جديدة اكثر تكاملا واوسع افقا . وفي هذا الموقف الذي يتخذه الانسان في بعض وعيه لذاته وفي ادراكه لتطوره وفي بعض استيعابه للاهداف الكلية التي تسير به الحياة اليها وعيا ودراكا واستيعابا يتمثلها في مجموعها شمولا لا قيود له ولا تخدم في هذا الموقف تكمن هيولي النفسية الثورية وبالتالي الثورة ذاتها .

واذا خطونا من هذا المنطلق خطوا سريعا لننقض بعده انقضاضا فكريا واعيا على مفهوم الثورة انتهينا الى نتيجة هي ان الثورة دفق حياتي تياري الحركة يحس به ، ويدرك مداه ويستجيب له الفرد الانساني ، غايته اقتلاع المسافات التي تفصل بين مرحلة واخرى من مراحل النوع الانساني الصاعدة .

ولا شك ان الثورة ـ وهي استعجال المراحل المتعاقبة كما استنتجنا ـ تحقق من المكاسب المختلفة ما يعجز السير الرتيب عن تحقيقه . وبقدر ما يستوعب المجموع ـ المجتمع او الامة ـ قيم هذه المكاسب التي حققتها الثورة بقدر ما تتضح معاني الثورة في ذهنه معاني مثمرة فيها البذل والعطاء.

وانقلاب هذه المكاسب وتحول هذه المعاني في نفسية الفرد او المجتمع الى مثل ذات حركة يتصورها الانسان في فرديته ومجتمعيته ، واضحة ويدركها شاملة ويتمثلها تمثلا عفويا فيه كل ذوب الاستيعاب العقلاني ، ثم يحياها كلا لا يتجزأ ـ هذا الانقلاب وهذا التحول هما الخطان الرئيسيان اللذان يعرفان سيكلوجية الثورة .

دمشق — اورخان ميسر

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان
او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات
في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣